عصام مخول (*)

النضال الأممي هو الجواب على الصراع القومي الدامي !
نحو قرن من تجربة الحركة الشيوعية في البلاد

إن أخوة الشعوب اليهودية العربية، وخصوصا أخوة الكادحين اليهود والعرب، كانت محفورة على رايات حزبنا، الذي عرف أن يدافع عن هذه الشعارات ويذود عنها في كل الظروف وفي وجه كل العواصف .(ماير فلنر– الأمين العام الأسبق للحزب الشيوعي الاسرائيلي : "خمسون عاما على الحركة الشيوعية في البلاد " ص ٣٥، ١٩٧٠)

نحاول في هذه المقالة أن نستشرف مضامين وحدة النضال الأممي اليهودي العربي وماذا تعني في ظروف نشوء الحزب الشيوعي الفلسطيني والمقدمات التي صقلته، في ظل الانتداب البريطاني ومشروع الاستيطان الكولونيالي الصهيوني، وفي ظروف النضال داخل إسرائيل ومواجهة سياساتها لاحقا . لقد باتت الدعوة إلى النضال اليهودي العربي المشترك عاملا أساسيا وبعضا من "جبنات" الحركة الشيوعية في البلاد، ولكنها تتميز وتختلف عن كل دعوة أخرى .. فهي مشروطة بالمضامين التي تلازمها .. ومحددة بمفهوم طبقي، نضالي، تقدمي، ثوري واضح المعالم. وسنحاول أن نعرض مفهومنا للنضال اليهودي– العربي، وما هي طبيعة المعركة التي يخدمها؟

للإجابة على هذه الاسئلة، لا بد أن نحاول تحديد المفهوم كما صاغه الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي بدأ تبلوره على أرضية التناقضات الناشئة في التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين إبتداء من عام ١٩١٩ ، وأخذ طابعه يكتمل ابتداء من العام ١٩٢٤ مع اعتراف الكومنتيرن (الأممية الشيوعية) بالحزب وقبول

(*) قيادي في الحزب الشيوعي الإسرائيلي ومدير "معهد إميل توما للدراسات"– حيفا

استخلص الشيوعيون أن "التناقض القومي" العربي اليهودي، هو الأساس الذي تستند إليه سياسة الامبريالية الانجليزية المتواطئة مع البرجوازية اليهودية الصهيونية ومع القيادة الاقطاعية القومية العربية. واعتبروا أن تصفية جذور "التناقض القومي" في فلسطين تتطلب التركيز على المسألة الطبقية الاجتماعية كقاسم مشترك يجمع ما بين الكادحين العرب واليهود في البلاد، والعمل من أجل دفع الطبقة العاملة الفلسطينية إلى أن تتصدّر النضال العربي- اليهودي المشترك، من أجل حل معضلات المسألة القومية الكولونيالية في فلسطين.

عضويته فيها . " وبذلك تكون قد ظهرت عام ١٩١٩ القوتان الرئيسيتان اللتان ستقودان الحركة الجماهيرية المعادية للمشروع الكولونيالي في فلسطين: الحركة الوطنية الفلسطينية، ثم الحركة الشيوعية في فلسطين" .(سميح سمارة – العمل الشيوعي في فلسطين – الطبقة والشعب في مواجهة الكولونيالية، ص٤٣).

وجد الحزب نفسه في عام ١٩٢٤ أمام أربعة خطوط عمل يتوجب عليه اقتحامها لتطبيق توصية الكومنتيرن بتعريب الحزب، وترجمة هذا الهدف على أرض الواقع:

- الأول: خلق قناة اتصال بينه وبين الجماهير العربية الفلاحية والبدوية انطلاقا من عداء الطرفين المشترك لشراء الأراضي واستيطانها.
- الثاني: الدفاع عن مصالح العمال العرب وحقهم بالتصدي لمبدأ "احتلال العمل" الصهيوني، والنضال من أجل نقابة عمالية أممية.
- الثالث: اختراق الأحزاب الصهيونية والمؤسسات التابعة لها مثل الهستدروت ومحاولة ضربها من داخلها وضم العناصر المتقدمة فيها إلى الحزب.
- الرابع: المساهمة في بناء حركة شيوعية في المشرق العربي تسمح للحزب أن يعتبر نفسه جزءا من حركة التحرر العربية.

عرضت كل من الامبريالية البريطانية والحركة الصهيونية الصراع في فلسطين، على أنه صراع بين اليهود والعرب، بينما عرضه الشيوعيون على أنه صراع مع الامبريالية وعميلتها الصهيونية. وأن القضية الفلسطينية هي معركة تحرر وطني. وأنه في سبيل منع تحرر فلسطين لجأت الامبريالية البريطانية إلى "سياسة فرق تسد"، وجندت عملاءها في قيادة الحركة الصهيونية وفي قيادة الحركة الوطنية العربية لخدمة أهدافها، وفجرت من خلالهم الاحتراب الدموي بين اليهود والعرب لتثبّت وجودها وتحوّل الامبريالية من المشكلة إلى الحل، ومن المستعمر (بكسر الميم)، إلى المخرج من الأزمة والطرف "الضروري" لوقف الصدام القومي. كانت الامبريالية تهدف إلى عرقلة استقلال البلاد وتحررها من هيمنتها بشكل منهجي. إن المفهوم الأممي العمالي، للنضال العربي اليهودي المشترك الذي صاغه الشيوعيون في مواجهة الامبريالية والصهيونية، هو الرد على هذه السياسة، وهو الجواب على هذه المفاهيم المضللة وهو نقيضها الكفاحي .

واستخلص الشيوعيون أن "التناقض القومي" العربي اليهودي، هو الأساس الذي تستند إليه سياسة الامبريالية الانجليزية المتواطئة مع البرجوازية اليهودية الصهيونية ومع القيادة الاقطاعية القومية العربية. واعتبروا أن تصفية جذور "التناقض القومي" في فلسطين تتطلب التركيز على المسألة الطبقية الاجتماعية كقاسم مشترك يجمع ما بين الكادحين العرب واليهود في البلاد، والعمل من أجل دفع الطبقة العاملة الفلسطينية إلى أن تتصدّر النضال العربي– اليهودي المشترك، من أجل حل معضلات المسألة القومية الكولونيالية في فلسطين.

وفي الواقع لم يكن أمام الشيوعيين الفلسطينيين في تلك المرحلة (في سنوات التأسيس،ع.م) سوى الخيار الطبقي– الاجتماعي الذي حتمته خصوصية نشأة حركتهم داخل التجمع الاستيطاني اليهودي الغريب عن الواقع العربي، وهذا ما دفعهم بالتالي إلى المغالاة في التركيز على الطابع الاجتماعي للنضالات التي كانت تخوضها الجماهير العربية ضد الامبريالية والصهيونية . (ماهر الشريف – الشيوعية والمسألة القومية العربية في فلسطين ١٩١٩–١٩٤٨، ص ٢٠).

وحدد ماير فلنر "أن الحزب الشيوعي ربط بشكل وثيق،

بين النضال المعادي للامبريالية، وبين النضال العام للتقدم والاشتراكية، وتضامن دائما مع حركات التحرر القومي والاجتماعي في العالم، ورأى في الاتحاد السوفييتي حصن السلام، وحرية الشعوب والاشتراكية في العالم كله." (ماير فلنر – خمسون عاما).

ويذكر إميل توما بعدا إضافيا حين يشير الى أن "الحزب الشيوعي الفلسطيني، الذي يقوم على العضوية اليهودية بالأساس في حينه، دعا انطلاقا من مبادئه الثورية الأممية، إلى النضال ضد الامبريالية والصهيونية، وأيد النضال القومي العربي *بقدر انصباب هذا النضال ضد الامبريالية البريطانية، وبمدى ما تقف حركته الوطنية في مواجهة مع الامبريالية، وبقدر ما تعادي برامجها وتناضل ضد الانتداب البريطاني* .. ودعا الجماهير اليهودية إلى تأييد هذا الكفاح باعتباره يعبر عن مصالحها الحقيقية ." (اميل توما، جذور القضية الفلسطينية"، ص ٢٠٧)

ويعتبر المفكر الماركسي وولف إيرليخ أن نشاط الصهيونية يشكل جزءا لا يتجزأ من الاستراتيجية العالمية للامبريالية. قد تكون للصهيونية مصالحها الخاصة والمنفصلة عن المشروع الامبريالي، ولكنها غير قادرة على تحقيق مشروعها إلا في إطار وفي سياق المشروع الامبريالي في المنطقة وكجزء منه. ويعتبر وولف إيرليخ أنه منذ تصريح بلفور، تحول الاستيطان الصهيوني في فلسطين، إلى أداة أساسية في يد سلطات الانتداب البريطاني في صراعها مع حركة تحرر الشعب الفلسطيني، وأداة لإثارة الكراهية والأحقاد القومية ولتنفيذ سياسة التفرقة، وبذلك يكون الحكم البريطاني قد استغل لأهدافه كلا من الرجعية اليهودية والرجعية العربية، وإن كان سنده وعميله الأساسي هو الرجعية الصهيونية التي قادت التجمع الاستيطاني في فلسطين . (و. إيرليخ – قوة الفكرة، ص ١٩٠).

من دون فهم هذا التداخل الجوهري البنيوي بين مصالح الامبريالية والصهيونية، وحاجة الامبريالية إلى الصهيونية لسد الطريق أمام حركة التحرر القومي العربية في فلسطين وفي المنطقة العربية، (وهو ما يفسر تواطؤ الرجعيات العربية والتقاء مصالحها مع الامبريالية حتى يومنا هذا)، لن تكون هناك إمكانية لفهم حقيقي لطبيعة الموقف الأممي الذي تطرحه القوى التقدمية والحركة الشيوعية في البلاد على مدى سنوات الصراع القومي الدامي في فلسطين وعليها، بديلا وردا على هذه السياسة الإجرامية التي تتاجر بدماء شعبي هذه البلاد.

كيف تجلت مواقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من النضال الأممي على أرض فلسطين الملتهبة بسياسة "احتلال الارض"

الحزب الشيوعي الإسرائيلي: صورة من البدايات.

منذ البدايات، وجد الحزب الشيوعي نفسه أمام تحديات معقدة، وكان عليه أن يصقل برنامجه لمواجهتها. وفي مقدمة هذه التحديات، كيف يربط الحزب المصلحة الحقيقية للعمال في التجمع الاستيطاني اليهودي بالنضال التحرري المناهض للامبريالية والصهيونية الذي تخوضه الحركة الوطنية الفلسطينية وجماهيرها العربية؟ وما هي استراتيجيته لسلخ الفئات العمالية الواعية في التجمع الاستيطاني اليهودي عن الصهيونية ومؤسساتها. وما هو الجواب الديمقراطي الذي يوفره الحزب الشيوعي الفلسطيني للعمال اليهود ومستقبلهم ومستقبل تجمعهم الاستيطاني؟.

و"احتلال العمل"؟

في إطار هذه الرؤية للتضامن العمالي الأممي وتطبيقها على أرض فلسطين، تجلى موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من سياسة "احتلال العمل " الصهيونية بشكل ساطع، خلال الأحداث التي وقعت في نيس تسيونا في شباط ١٩٣٢. فقد تصدى الشيوعيون في هذه المستوطنة، للفصيل الصدامي الذي شكلته الهستدروت لطرد العمال العرب بالقوة، من أماكن عملهم، ووزعوا بيانا، وقعه عدد كبير من العمال اليهود، فضحوا فيه مناورات الهستدروت ودعوا إلى تشكيل جبهة أممية موحدة، تجمع العمال العرب واليهود، في النضال ضد تفشي البطالة، ومقاومة سياسة "احتلال العمل" العنصرية والعدوانية التي تبنتها الهستدروت، بما تعنيه من طرد العمال العرب من أماكن عملهم لاستيعاب عمال يهود محلهم. وبسبب هذه "الجريمة"، جلس الشيوعيون اليهود في قفص الاتهام في المحكمة الهستدروتية في مستوطنة نيس تسيونا، في آذار– نيسان ١٩٣٢، وكان بن غوريون يمثل الادعاء فطالب بتجريمهم، ورد عليه أحد الرفاق الشيوعيين مدافعا أمام المحكمة موضحا موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني في الممارسة، وكاشفا عن عمق العداء والتناقض بين الطرفين الشيوعي والصهيوني قائلا: "إن معركة العمال التي تضع طرد العامل العربي من المستوطنة هدفا لها، لأنه عربي، هي معركة سافلة وعمل إجرامي ونوع من الفاشية، على كل عامل أن يكافحها.

وانه لواجب مقدس على العامل الواعي أن يمزق القناع عن وجوه جميع هؤلاء الشركاء الذين تواطئوا معا لإبعاد العامل اليهودي عن العامل العربي . وأنه لواجب مقدس على العامل اليهودي الواعي، أن يبرهن للفلاح، أن لا دخل له بأولئك الذين يحتلون أرضه، وأن يظهر للعامل العربي، أن لا دخل له مع أولئك الذين يحتلون عمله.. فقط هكذا يمكن إخراج العامل اليهودي من مستنقع الشوفينية، وفك العامل العربي من شبكة الرجعية الاقطاعية، ودمجهما معا في حلف أخوة متين" . (ماهر الشريف – الشيوعية والمسألة القومية، موسى البديري – The Palestine Communist Party pp› 107–109)، ماير فلنر – خمسون عاما على الحركة الشيوعية في البلاد).

وفي إطار الرؤية الأممية الكفاحية المنحازة لنضال العمال والفلاحين العرب، حيّت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في كانون الأول ١٩٣٢ "المواقف الشجاعة التي وقفها العمال العرب في وادي حنين، وأشادت بقيام العمال العرب بالدفاع عن أنفسهم بالقوة ضد اعتداء المخافر الصهيونية اللئيمة التي تم تشكيلها من عمال يهود.. وأشارت إلى أنه لا توجد لغة غير لغة القوة، للتعامل مع الأنذال الذين يهجمون على خبز العامل .. والشيء الذي كان لا بد أن يحصل قد حصل، فالعامل العربي هبّ للكفاح، من أجل مصالحه الاقتصادية والاجتماعية، اضطر أن يقاوم الهجوم الذي تدبره الهستدروت منذ سنين. وانتهى البيان قائلا: فليسقط الاحتلال الصهيوني والهجرة الفاشستية!، فلتسقط الحكومة الاستعمارية وإرهابها البوليسي! فليسقط الأفندية الاقطاعيون الخونة!

"ودعا الحزب الفلاحين العرب في وادي الحوارث، وفي أم خالد وفي الدامون حيث تعرضوا للهجمات، إلى الدفاع عن أراضيهم ووجودهم بالقوة، والامتناع عن دفع الضرائب والغرامات والديون، ودعاهم إلى احتلال الأراضي الأميرية، وأراضي المستوطنين الصهيونيين، والملاكين العرب، والاتحاد مع عمال المدن، وتشكيل لجان ثورية في القرى لقيادة تحركاتهم ". (ماهر الشريف –

الشيوعية والمسألة القومية، ص ٧٧).

وانضم الشيوعيون اليهود والعرب إلى المعركة العنيفة القاسية التي خاضها فلاحو العفولة العرب الذين هبوا لمقاومة قوات الانتداب وتراكتورات الحركة الصهيونية التي وصلت لطردهم من أرضهم التي كانوا يفلحونها ويعيشون عليها، بعد أن باعها الاقطاعي سرسق بمن عليها في العام ١٩٢٤ لمتمول أميركي، اشتراها لصالح الحركة الصهيونية، وسقط في هذه المواجهة قتيل وجرحى. وأصدر الحزب الشيوعي منشورا جاء فيه: تسقط سياسة الكذب التي تجمع القيادة الصهيونية والحكومة الامبريالية! يسقط احتلال العفولة! يعيش التضامن بين العمال اليهود والعرب! تعيش الحرب الطبقية ضد برجوازيتنا والبرجوازية الاجنبية!

وقد طورد الشيوعيون في أعقاب هذا الموقف وتعرضوا لحملة اعتداءات وقمع جسدي وحصار اقتصادي تجويعي شرس، وطوردوا وضربوا في أماكن عملهم، وأماكن سكناهم، لمجرد دفاعهم عن فلاحي العفولة وحقهم في فلاحة أرضهم . ("مختارات من شهادات ووثائق حول :"الحركة الشيوعية واليشوف في أرض إسرائيل ١٩٢٠ –١٩٤٠"، إصدار الجامعة العبرية.)

ولم يكن صدفة في وقت لاحق، ان تلاقي ثورة القسام ١٩٣٦، الدعم السياسي والعسكري من الحزب الشيوعي الفلسطيني ورفاقه اليهود والعرب.. واعتبرها الحزب الشيوعي الفلسطيني ثورة شعبية، ثورة فلاحين وعمال ومثقفين وطنيين، ركزت نارها جوهريا على مواقع الامبريالية البريطانية، وهي ثورة معادية للصهيونية كأداة للامبريالية، لكنها لم تكن احترابا يهوديا – عربيا، بغض النظر عن ظهور انحراف في الحركة القومية العربية حاول أن يجعلها كذلك، في لهاثه وراء خدمة سياسة الامبريالية وخدمة نهجها وسياسة "فرق تسد" لتحييد بريطانيا من الواجهة والمواجهة.

الموقف الأممي حاضر منذ البدايات الأولى في رؤية الحزب الشيوعي لمستقبل البلاد

منذ البدايات، وجد الحزب الشيوعي نفسه أمام تحديات معقدة، وكان عليه أن يصقل برنامجه لمواجهتها. وفي مقدمة هذه التحديات، كيف يربط الحزب المصلحة الحقيقية للعمال في التجمع الاستيطاني اليهودي بالنضال التحرري المناهض للامبريالية والصهيونية الذي تخوضه الحركة الوطنية الفلسطينية وجماهيرها العربية؟ وما هي استراتيجيته لسلخ الفئات العمالية الواعية في التجمع الاستيطاني اليهودي عن الصهيونية ومؤسساتها. وما هو الجواب الديمقراطي الذي يوفره الحزب الشيوعي الفلسطيني، للعمال اليهود ومستقبلهم ومستقبل تجمعهم الاستيطاني؟.

أصدر الحزب الشيوعي الفلسطيني في كانون الثاني ١٩٢٦ نشرة تحت اسم "حزب الطبقة العاملة"، ضمنها تقريرا عن مواقف أعضاء الحزب ودورهم في مجلس النواب الصهيوني الثاني (نهاية ١٩٢٥). وكان الحزب في إطار استراتيجيته للعمل من داخل مؤسسات اليشوف ومحاربتها من الداخل، قد خاض الانتخابات للمجلس تحت اسم "حزب الطبقة العاملة"، بعد أن حرم من استعمال اسمه، بسبب محاربة القوى الصهيونية له عقب طرد "فراكتسيا العمال"(كتلته النقابية) من الهستدروت. وتمكن الشيوعيون من إدخال ستة مندوبين إلى مجلس النواب (أسيفات هنفحاريم). وتشير النشرة إلى أن ممثلا للحزب طالب في الجلسة الأولى لمجلس النواب، بحذف جدول الأعمال المقترح بكامله واقترح جدولا آخر يتضمن البحث: "في إقامة جبهة عمالية يهودية – عربية مشتركة ضد النير الاستعماري".

بطرح هذه القضية يقف الحزب على النقيض الكامل مع الأحزاب الصهيونية . فدعوته إلى النضال لانتزاع الاستقلال التام لفلسطين على قاعدة العداء للامبريالية، وفي إطار جبهة عمالية، يهودية – عربية، يحرج الأحزاب الصهيونية ويفضح ارتباطها العضوي بالامبريالية، ويهدد مشروعها بالفناء.

في رد المندوب الشيوعي على مشروع بن غوريون إعطاء اليهود استقلالا ذاتيا في فلسطين، يرفض بيرمان مشروع بن غوريون جملة وتفصيلا ويقول إنه مليء بالتناقضات. ويضيف : "إذا كان بن غوريون يطالب باستقلال إقليمي بحت فإنه يتحتم عليه الاعتراف بأن البلاد يجب أن تكون مستقلة وغير مرتبطة بالاستعمار، لأنه من غير الممكن أن يطالب اليهود بامتيازات يحرم منها العرب وأن نسمي ذلك استقلالا. " ويستنتج بيرمان متوجها إلى العمال اليهود قائلا : "مدوا أيديكم إلى إخوتكم الحقيقيين، إلى العامل العربي المضطهد والمظلوم مثلكم. يجب ألا يكون هناك مجلس نواب قومي (يهودي)، بل مجلس عام واحد لجميع البلاد يكون منتخبا من قبل العرب واليهود. والحل الوحيد في هذه الحالة هو استقلال البلاد التام وإقرار دستور ديمقراطي لها. "

وإذا كان الحزب قد ربط تأسيس بديله الأممي بمضامين النضال ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية، فإن انحرافات بعض القوى داخل الحزب في مراحل تاريخية مختلفة، وما قادت إليه من انقسامات خطيرة وأزمات، كانت تعبيرا عن التخلي عن الخط الأممي للحزب، والإخلال الانتهازي اليميني، بمعادلة معاداة الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية، والانكفاء في مراحل اشتداد الصراع، نحو القوقعة القومية والشوفينية أحيانا.

ويضيف بيرمان: "ليس لكم أن تدحضوا اقتراحنا بادعاء أن مجلس نواب ذي أكثرية عربية سيضطهد حقوقنا كيهود. إن الفلاح العربي والعامل العربي ليسوا لوردات بريطانيين، وليسوا برجوازيين صهيونيين، إن تحالفنا معهم يجعل حقوقنا أكثر صونا مما هي في ظل الحكم القائم الحالي.. حتى أولئك العمال الذين لا زالوا يعارضون الوحدة مع العمال العرب، عليكم أن تسألوا أنفسكم، ما الذي يربطكم بالطبقات الطفيلية من أبناء شعبكم؟ إن هؤلاء العمال أنفسهم سيعترفون أنهم أقرب ألف مرة إلى الفقراء الجائعين من العرب، منهم إلى البرجوازيين اليهود المتخمين الذين يعتاشون على تعب الشعب. إن قضايا الطبقة العاملة مشتركة لجميع العاملين في البلاد عربا ويهود.

وفي إطار طرحه برنامج الحزب للحل في هذه المرحلة من تاريخ فلسطين وتاريخ الحزب الشيوعي الفلسطيني يقول بيرمان: "لم يقصد العمال الذين أرسلونا الى هنا إعطاء البرجوازية الصهيونية حق تمثيلهم في إجرائها مفاوضات الخنوع مع حكومة الانتداب وفي إعاقتهم قيام حلف الكادحين اليهود والعرب. لذلك فنحن لن نشترك في انتخابات اللجنة القومية ونقترح بدلها انتخاب لجنة أخرى تكون مهمتها الوحيدة التفاوض مع الممثلين العرب بهدف التحضير لمؤتمر تأسيسي قطري."

وأضاف: "من الممكن ضمان الحقوق المدنية لليهود، فقط في حالة إيجاد الشروط الأساسية لوجود الديمقراطية في فلسطين، وهذه الشروط هي إنهاء الانتداب وجلاء جيش الاحتلال، والدعوة لعقد مؤتمر تأسيسي ديمقراطي وقطري يمثل الجماهير الكادحة، ويكون باستطاعته ضمان الحقوق الكاملة لجميع مواطني هذه البلاد. وفي بند آخر يقول: "من الممكن تحقيق ذلك عن طريق كفاح منظم تقوم به جماهير الكادحين في البلاد في إطار جبهة عربية يهودية مشتركة، وذلك بالتحالف مع كافة القوى الثورية في العالم" . (سليمان بشير– المشرق العربي في النظرية والممارسة الشيوعية ١٩١٨– ١٩٢٨، ص ١٥٦– ١٥٧).

إن هذا الطرح أممي مناهض للامبريالية ومعاد للصهيونية مطبوع بمفاهيم الحزب الشيوعي.

انحرافات وأزمات وانقسامات في ظل تحولات موضوعية كبرى

"إن مؤامرات الانتداب البريطاني (والامبريالية عامة، ع.م)، وضغط الصهيونية وتأثير الحركة القومية العربية– أدت في العديد من الحالات إلى انحرافات قومية يهودية وعربية في الحزب، وأدت به إلى أزمات وانقسامات. ولكن حزبنا نجح دائما

ملصق للحزب الشيوعي الإسرائيلي يعود للعام ١٩٥٤.

في التغلب على الانحرافات والأزمات، وسجل برغم الاخطاء ونقاط الضعف في أزمنة مختلفة، صفحات مضيئة في النضال ضد الامبريالية ومن أجل الاستقلال الوطني . ضد العداء بين الشعوب ومن أجل أخوة الشعوب اليهودية – العربية". (ماير فلنر – خمسون عاما على الحزب الشيوعي الفلسطيني).

لم تكن طريق نشوء الحركة الشيوعية وتطورها في البلاد مفروشة بالورد. على العكس من ذلك كانت مزروعة بصراع قومي داي، ومؤامرة إمبريالية وصهيونية سافرة على وجود الشعب الفلسطيني في وطنه، وتواطؤ من الرجعية العربية مع المتآمرين عليه في لهاثها وراء مصالحها الضيقة التافهة، وعجزها وأدائها المتخلف الذي يندى له الجبين.

في ظل هذه الصورة، كان على النهج الأممي الذي حفره الحزب الشيوعي على راياته منذ تأسيسه وحتى اليوم، أن يمر في امتحانات عصيبة لا تتوقف. كيف يستطيع هذا الموقف النابع من التحليل الطبقي للصراع القومي في فلسطين، وللصراع عالميا بين قوى الثورة والتحرر الوطني والاشتراكية من جهة، وبين الامبريالية وعكاكيزها الرجعية من الجهة الأخرى، أن يصمد في وجه العواصف المحلية والعالمية، وفي وجه المجازر والعدوان والحرب والاحتلال والعنصرية الفاحشة وإغراق البلاد بدماء العرب واليهود؟ لم يكن صمود الموقف الأممي وتجذره في هذه الظروف أمرا مفروغا منه.

وإذا كان الحزب قد ربط تأسيس بديله الأممي بمضامين النضال ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية، فإن انحرافات بعض القوى داخل الحزب في مراحل تاريخية مختلفة، وما قادت إليه من انقسامات خطيرة وأزمات، كانت تعبيرا عن التخلي عن الخط الأممي للحزب، والإخلال الانتهازي اليميني، بمعادلة معاداة الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية، والانكفاء في مراحل اشتداد الصراع، نحو القوقعة القومية والشوفينية أحيانا.

ولم يكن صدفة، أن تتعرض الوحدة الأممية العربية– اليهودية للحزب، في أعقاب "انتفاضة آب ١٩٢٩" للاهتزاز، ومواقف الحزب للزعزعة، والسقوط في الخطأ في قراءة الطابع الوطني المناهض للامبريالية بالأساس، الذي عبرت عنه الانتفاضة في ظل تحولات بنيوية عميقة شهدتها فلسطين خلال عقد العشرينيات. وبرغم تشويه هذا الطابع الوطني للانتفاضة وحرفها عن مسارها، من قبل القوى الاقطاعية والدينية، التي استغلت حالة الفوران الشعبي وحرفتها عن عناوينها الحقيقية: الامبريالية والصهيونية، وأغرقت هذه الانتفاضة بدلا من ذلك بالدماء، بتشجيع من الامبريالية البريطانية، حتى جرى تصويرها "مذبحة بحق اليهود" . كان هذا الجو مؤهلا لوقوع الأكثرية في قيادة الحزب في خطأ في توصيف الحالة. وتحديد الموقف منها.

ولم يكن عابرا أن يقوم الحزب الشيوعي الفلسطيني في كانون الأول ١٩٢٩ مع قمع الانتفاضة بالحديد والنار الامبريالية، بمراجعة تقييماته ومواقفه الخاطئة وانتقاد هذه المواقف بشأن انتفاضة آب ١٩٢٩ والتراجع عنها. متقبلا موقف الكومنتيرن وتحليله لها، فاعتبر أن الانتفاضة كانت المقدمة الضرورية لثورة زراعية ضد الامبريالية، وأنها جاءت تعبيرا عن تناقضات علاقات ملكية الأرض، والصراع الطبقي في القرية الفلسطينية. وتراجع الحزب عن تعريفها "مذبحة ضد اليهود"، كما تجنب تسميتها "انتفاضة البراق" مع ما يخلقه ذلك من انطباع مغالط، يوحي بأن هذه الانتفاضة كانت "هبّة دينية"، ومجرد صراع ديني من منطلقات دينية، وما يعنيه ذلك من استبعاد طابعها الوطني التحرري. وانتقد الحزب تصرفه حيال الانتفاضة، وأعاد تقييمه لها على أنها انتفاضة شعبية قومية معادية للامبريالية والصهيونية في جوهرها، نابعة عن تضييق الخناق على الفلاحين العرب والريف العربي، مرتبطة باتساع عمليات شراء الأرض، وتوسيع الاستثمار الامبريالي والصهيوني في البلاد وهو ما عمق سياسة احتلال العمل واحتلال الأرض، وزاد من تهميش الفلاحين والبدو وضيق الخناق على حياتهم. (سميح سمارة –المصدر نفسه، ص ١٤٨).

وتبنى الحزب استنتاج الكومنتيرن الأساسي، بأن "مهمة الحزب الأكثر إلحاحا هي أن يتخذ مسارا واضحا وحاسما لتعريب الحزب من القمة إلى القاعدة" . لكن هذا الموقف انعكس على بعض القطاعات في صفوف الحزب التي رفضت موقف الكومنتيرن بالكامل وعلى الأخص اللجنة الحزبية في حيفا . وفي جلسة عامة موسعة للجنة المركزية للحزب صدر قرار الادانة للجنة حيفا والأعضاء الذين استمروا بتمسكهم بمواقف الحزب السابقة عن الانتفاضة، وقرر الاجتماع تطهير الحزب من جميع التحريفيين اليمينيين، كما أقر ضرورة تطبيق توجيهات الكومنتيرن الخاصة بالتعريب، تطبيقا فعليا.

لقد نضجت ظروف الانقسام على أساس قومي حاد، وظهر في العام ١٩٤٣ الحزب الشيوعي الفلسطيني بعضويته اليهودية، واعتكف قسم من قادة الحزب عن العمل السياسي ومنهم السكرتير العام رضوان الحلو، وبالمقابل كانت قد نضجت الظروف للإعلان في حيفا عن عصبة التحرر الوطني بقيادة مجموعة من الشباب أبرزهم إميل توما وتوفيق طوبي وفؤاد نصار وإميل حبيبي ومعهم الشيوعي المخضرم بولس فرح. وأصبحت عصبة التحرر الوطني الإطار الذي نشط فيه الشيوعيون العرب.

فشل ثورة ١٩٣٦ – ١٩٣٩

تطورات كبيرة وانقسام كبير عام ١٩٤٣

لم تكن التطورات في نهاية عقد الثلاثينيات من القرن الماضي أقل تعقيدا للحزب الشيوعي الفلسطيني، منها في نهاية عشرينياته . فقد كانت الثورة الشعبية التي أطلقها القسام، وأيدها الحزب الشيوعي (وانتقدها حين جرى حرفها عن مسارها الوطني)، قد انتهت إلى الفشل. كانت تجري هناك وتكتمل عوامل تفعل فعلها على الحزب باتجاهات متعاكسة. فمن جهة كان موقف الحزب الشيوعي من دعم ومساندة الجماهير العربية، وكانت عملية تعريب الحزب تعريبا فعليا تمارس على أرض الواقع، بناء على ما قرره المؤتمر السابع للحزب عام ١٩٣٢ في ظل ثورة شعبية عارمة. وساد الشعور لدى بعض القيادات اليهودية أنها أخرجت خارج الحلبة. وفي المقابل، جاء الإضراب السياسي العام، الذي خاضه العرب الفلسطينيون ليعزز الاستقلال الذاتي الاقتصادي للتجمع اليهودي في فلسطين، وبرز تشكل قطاع يهودي مستقل اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، ومتعارض تماما مع القطاع العربي. وجاءت ظروف السرية التامة التي كان يعمل في ظلها الشيوعيون، والقمع الشديد الذي تعرضوا له خلال أحداث الثورة، وانقطاع الاتصال بين الشيوعيين العرب واليهود في ظروف احتدام المعركة الثورية في البلاد، جاءت هذه الظروف لتدفع اللجنة المركزية للحزب، لأول مرة في تاريخه، لإقامة "قسم يهودي" في الحزب، بشكل مؤقت، هدفه نقل قرارات وتوجيهات الحزب إلى الناحية اليهودية. ومع الوقت وفي ظل استمرار حملات القمع واعتقال الأمين العام للحزب، رضوان الحلو، بدأت العلاقات تضعف بين قيادة الحزب والهيئات القيادية في القسم اليهودي. وبدأ القسم في انتهاج سياسة مغايرة للسياسة العامة التي كانت أقرتها اللجنة المركزية . وكان من أهم نقاط الصدام قرار الشيوعيين اليهود الانخراط في صفوف المنظمات والأحزاب الصهيونية، والعمل داخلها، بهدف "سلخ" "العناصر الثورية " عنها ودفعهم للانضمام الى صفوف الحزب الشيوعي، وذلك من خلال الاقتناع بأن التجمع اليهودي لا يمثل تجمعا متجانسا، وأنه من الممكن تشجيع عملية التمايز داخله. وكان ذلك يتعارض مع توجه الحزب العام الذي كان يرى أن انسلاخ العمال اليهود عن الحركة الصهيونية، لا يمكن ان يتحقق إلا بانخراطهم النشيط في النضال الوطني التحرري، المعادي للامبريالية والصهيونية، الذي تخوضه الجماهير العربية .(إميل توما– يوميات شعب، ثلاثون عاما على الاتحاد، ص ٣٥).

وقام "القسم اليهودي " في الحزب بإعطاء تفسير مستقل ومغاير لموقف الحزب من شعار "الجبهة الشعبية" الذي كان قد تبناه الحزب.. ففي حين كان الحزب يؤكد أن الجبهة الشعبية في ظروف فلسطين الخصوصية، هي في الأساس جبهة تجمع الشيوعيين وأحزاب الحركة الوطنية العربية في النضال ضد الامبريالية والصهيونية، فسر أعضاء "القسم اليهودي"، شعار الجبهة الشعبية، بأنه يعني دعم "المعتدلين" ضد "المتطرفين" (منظمة الأرغون)، داخل التجمع الاستيطاني اليهودي.

قامت اللجنة المركزية للحزب في عام ١٩٣٩ بانتقاد الأسس السياسية التي انتهجها القسم اليهودي داخل التجمع السكاني اليهودي وشجبت محاولته تشكيل جبهة مع بعض المجموعات داخل الحركة الصهيونية، وأكدت أن دور الكادر اليهودي داخل الييشوف، كان يجب أن يقتصر على توضيح، أن مسؤولية اندلاع الثورة العربية، تتحملها الامبريالية والحركة الصهيونية، وأن أعمال الإرهاب داخل الثورة كانت "ظاهرة جانبية" . ..(Musa Budeiri) . (The Palestine Communist Party , pp 109

عصبة التحرر الوطني: برنامج ديمقراطي، تقدمي وأممي

كانت تداعيات هذا الصراع تتسارع، وكانت ملامحه الفكرية والسياسية تنضج وتتضح، وكان القرار بحل الكومنتيرن في هذه المرحلة يلغي امكانية تدخل خارجي لحسم الصراع . لقد نضجت ظروف الانقسام على أساس قومي حاد، وظهر في العام ١٩٤٣ الحزب الشيوعي الفلسطيني بعضويته اليهودية، واعتكف قسم من قادة الحزب عن العمل السياسي ومنهم السكرتير العام رضوان الحلو، وبالمقابل كانت قد نضجت الظروف للإعلان في حيفا عن عصبة التحرر الوطني بقيادة مجموعة من الشباب أبرزهم إميل توما وتوفيق طوبي وفؤاد نصار وإميل حبيبي ومعهم الشيوعي المخضرم بولس فرح. وأصبحت عصبة التحرر الوطني الإطار الذي نشط فيه الشيوعيون العرب في لحظة كانت فيها الطبقة العاملة الفلسطينية تتوسع بشكل كبير ويزداد وزنها ووعيها الطبقي والوطني بسرعة، وذلك بفضل جملة من التطورات الاجتماعية والاقتصادية، طرأت على بنية المجتمع العربي الفلسطيني. وأخذت الطبقة العاملة الفلسطينية تطمح إلى التحول إلى "الطبقة القائدة قوميا" . وفي ظروف تبلور تيار وطني يساري عريض بين صفوف الجماهير العربية، نجح في سعيه الى تأطير هذا التيار بابتكار شكل تنظيمي "متميز " كان يقع في منتصف الطريق بين شكل التنظيم الشيوعي، وشكل المنظمة القومية اليسارية. (ماهر الشريف، المصدر السابق). بينما يعتبرها العديد من الباحثين تنظيما شيوعيا عمل في فلسطين في هذه المرحلة ويعتبرها قادتها الإطار الذي جمع الشيوعيين العرب ونظم نشاطهم في تلك المرحلة التاريخية الدقيقة ..

إن تجربة عصبة التحرر الوطني القصيرة والمكثفة تستحق دراسة منفصلة، قد لا يتسع لها المجال هنا .ولكنني أكتفي هنا بنقل مقتطفات من برنامج عصبة التحرر الوطني بشأن مستقبل فلسطين، كما عرضه إميل توما في اجتماع الأحزاب الشيوعية في دول الكومنولث في لندن عام ١٩٤٥وعكس من خلاله موقفا أمميا ديمقراطيا وتقدميا واضح المعالم:

١. أن جوهر المسألة الفلسطينية هو الاستقلال الذي تقف الامبرياليتان الأميركية والبريطانية في طريق تحقيقه.

٢. تبدو المسألة أحيانا وكأنها "نزاع بين العرب واليهود وليست صراعا بين الشعب العربي والجماهير اليهودية من جهة، والامبريالية من جهة ثانية"، وفي هذا المجال وبرغم صحة القول إن "الكفاح ضد الامبريالية لا يمكن فصله عن الكفاح ضد الصهيونية، إلا أن هناك ضرورة لوضع خط فاصل يميز بين الصهيونية كما تمثلها أميركا وبريطانيا، وبين الجماهير اليهودية المضللة في فلسطين التي لها مصلحة مشتركة مع الشعب الفلسطيني."

٣. ليس صحيحا القول إن القضية المركزية هي قضية الهجرة اليهودية،. صحيح أن الهجرة تقف حائلا على طريق التعاون الجماهيري بين العرب واليهود في نضال مناهض للامبريالية. ولكنها ليست القضية المركزية في فلسطين . القضية المركزية هي أن الشعب العربي الفلسطيني في فلسطين يكافح من أجل استقلاله، وأن الصهاينة تتبعهم جماهير اليهود لا يكافحون من أجل الاستقلال وضد الاستعمار البريطاني.

٤. .. إن الكفاح ضد الانتداب البريطاني وضد الامبريالية البريطانية، لا يمكن أن يفصل عن الكفاح ضد الصهيونية والهجرة وبيع الأراضي".

٥. إذا كانت قد وقعت "صدامات بين العرب واليهود" فهي لم تكن الصفة المميزة لحركة التحرر العربي". إن الخطأ الأساسي في موقف الحركة الوطنية هو أنها لم تتخذ موقفا إيجابيا من الجماهير اليهودية باعتبارها مميزة ومختلفة عن الصهيونية .

٦. إن التعاون الطبقي العمالي العربي– اليهودي وكفاح القوى التقدمية اليهودية المتقدمة ضد الارهاب الصهيوني، عاملان جديدان يساعدان في الكفاح المناهض للامبريالية. (مجلة "الضمير" ١٩٤٥/١١/٢٨ سميح سمارة، ص ٢٨٨– ٢٨٩).

يحمل هذا البرنامج كل مقومات الموقف الأممي الدقيق والواقعي والديمقراطي. وهو الأكثر تحديدا لطبيعة المواجهة مع الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية، من دون أن يبعده ذلك عن خوض النضال لكسب اليهود التقدميين إلى جانب المعركة التحررية للشعب الفلسطيني .

"وتعترف العصبة لدى تقديمها هذا الحل بالحاجة إلى حماية حقوق اليهود الموجودين حاليا في فلسطين . وتعترف كذلك بأن هذه الحقوق لا يمكن حمايتها إلا في دولة فلسطينية حرّة مستقلة" (أميل توما – مؤتمر صحافي في القدس، ٦ حزيران ١٩٤٧).

" كانت عصبة التحرر الوطني هي الفصيل الوطني الوحيد الذي يطرح البرنامج المتكامل، المستند في جوهره على وحدة فلسطين واستقلالها، والذي يأخذ في الاعتبار الواقع السياسي

أصدرت اللجنة المركزية لعصبة التحرر الوطني، عشية انعقاد مؤتمر إعادة وحدة الشيوعيين العرب واليهود، في أكتوبر ١٩٤٨، تحليلا نقديا قيمت فيه تأثير السنوات الخمس السابقة، التي انتظم فيها الشيوعيون العرب واليهود في فلسطين، في تنظيمين منفصلين على أساس تركيبة قومية. واعتبرت اللجنة المركزية للعصبة، أن "بناء عصبة التحرر الوطني على أساس قومي منفصل خلق في صفوفها الوهم، بأن الشعب العربي في فلسطين مؤهل وقادر على تحرير البلاد من براثن الامبريالية بمفرده، ومن دون الأخذ في حسابه، القوى الثورية داخل الشعب اليهودي."

الراهن، بما فيه وجود ما يزيد عن ٦٥٠ ألف يهودي، يشكلون ثلث تعداد السكان ويشغلون مركز التطور الرأسمالي الذي يشمل البلاد." (سميح سمارة، ص ٢٨٩).

مؤتمر إعادة الوحدة الأممية:
التمسك بإعادة الاعتبار إلى أسس النضال اليهودي العربي المشترك

كانت الفترة بين ١٩٤٣ وحتى ١٩٤٨، هي الفترة الوحيدة التي عمل فيها تنظيمان شيوعيان في فلسطين يتشكلان على أساس قومي، في وقت كانت تمر فيه البلاد بأخطر التطورات في تاريخها، وتتحول سياسيا وديمغرافيا وطبقيا، وتمضي نحو التقسيم، والحرب والنكبة. وتطرح مهام جديدة وتحديات غير مسبوقة على الحركة الشيوعية.

في أكتوبر ١٩٤٨ اتحد الشيوعيون العرب الذي بقوا في وطنهم في القسم الذي قامت عليه اسرائيل، مع الشيوعيين اليهود في إطار الحزب الشيوعي الاسرائيلي . حدث ذلك في ظروف جديدة، وتحولات عاصفة، عصفت بفلسطين، كان من نتائجها قيام دولة اسرائيل ونكبة الشعب الفلسطيني وتهجيره وسط مؤامرة ثلاثي الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية .

وحين يعالج الشيوعيون اليهود والعرب مسألة إعادة توحيد صفوفهم، يبدؤون عادة من الاعتبار بأن سنوات الانفصال الخمس الماضية لم يكن لها مبرر موضوعي. ويقول توفيق طوبي: "لقد حدثت هذه الفرقة، التي لا مبرر لها، في فترة تاريخية مصيرية .وقد أضرت بنضال الشعبين ضد الامبريالية ومن أجل تحررهما واستقلالهما، ومن أجل التقدم الاجتماعي وتجذير الأفكار الاشتراكية". ويتابع طوبي: "كانت هذه سنوات انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتداعي الكولونيالية البريطانية في البلاد. وفي هذه الفترة المصيرية بالذات كانت القوى التقدمية اليهودية والعربية المعادية للامبريالية، أحوج ما تكون فيه، إلى التعاون المشترك بين الشعبين في نضالهما ضد العدو المشترك . فوحدة كهذه، كانت ستساعد على طرد الحكم الكولونيالي البريطاني بآلام وخسائر أقل، وبدم ودموع أقل لكلا الشعبين، وخصوصا للشعب العربي الفلسطيني."(توفيق طوبي – الوحدة التي صمدت في الامتحان، ثلاثون عاما على مؤتمر إعادة وحدة الشيوعيين اليهود والعرب"، الاتحاد ٢٠ /١٠/ ١٩٧٠)

أصدرت اللجنة المركزية لعصبة التحرر الوطني، عشية انعقاد مؤتمر إعادة وحدة الشيوعيين العرب واليهود، في أكتوبر ١٩٤٨ ، تحليلا نقديا قيمت فيه تأثير السنوات الخمس السابقة، التي انتظم فيها الشيوعيون العرب واليهود في فلسطين، في تنظيمين منفصلين على أساس تركيبة قومية. واعتبرت اللجنة المركزية للعصبة، أن "بناء عصبة التحرر الوطني على أساس قومي منفصل خلق في صفوفها الوهم، بأن الشعب العربي في فلسطين مؤهل وقادر على تحرير البلاد من براثن الامبريالية بمفرده، ومن دون الأخذ في حسابه، القوى الثورية داخل الشعب اليهودي. وقد تم إبراز هذه الفرضية الخاطئة بشكل ملموس في سياسة العصبة الأساسية، بشأن مسألة الوحدة القومية العربية . وحدة بين القيادة البرجوازية والإقطاعية الجديدة وبين القوى الشعبية الناشئة. إن الفرص لنجاح وحدة من هذا النوع، كانت غير قائمة أصلا، فكيف يمكن لعملاء الامبريالية أن يشاركوا في الجبهة المناهضة للامبريالية؟ وخلصت اللجنة المركزية لعصبة التحرر الوطني إلى أن نتيجة هذه السياسة، كانت التنكر لضرورة إدانة القيادة البرجوازية والإقطاعية الجديدة والنضال من أجل عزلها عن قيادة الحركة الوطنية .(العربية – ع.م) .كان من غير الممكن أن نقيم جبهة كفاحية عربية – يهودية موحدة، ما لم نخض في الوقت نفسه معركة ثورية حازمة ضد الامبريالية

سجّلت لحظات المنعطفات التاريخية الكبيرة في البلاد انعكاساتها على الحزب الشيوعي، إيجابا وسلبا. فإذا كانت حرب عام ١٩٤٨ بما حملته من نكبة الشعب الفلسطيني وقيام دولة اسرائيل، قد قادت إلى مؤتمر وحدة الشيوعيين العرب واليهود وإلى قيام الحزب الشيوعي الاسرائيلي، بعد انشقاق عميق وعلى أساس قومي منذ العام ١٩٤٣، وإذا كانت انشقاقات قد حدثت على خلفية ثورة القسام عام ١٩٣٦، وتعثرها في نهاية الثلاثينيات، وصولا إلى انقسام عام ١٩٤٣، فإن الأجواء التي نشأت في أواسط الستينيات من القرن الماضي، عشية الاعداد لعدوان حزيران ١٩٦٧، قادت إلى أحد أخطر الانقسامات .

من جهة، ومن أجل عزل البرجوازية العربية والرجعية اليهودية من قيادة الجماهير، من الجهة الأخرى.

وفي البيان الصادر عن الحزب الشيوعي الإسرائيلي (اليهودي العربي) في مؤتمر إعادة وحدة الشيوعيين اليهود والعرب، جاء، إن وحدة طليعة الطبقة العاملة في دولة اسرائيل هي مكسب مهم في نضال الطبقة العمالية في البلاد . وفكرة أخوة الشعوب تحتفل بانتصارها المهم الأول في دولة اسرائيل . إنها خطوة مهمة نحو إزالة نتائج سياسة الاستعمار البريطاني "فرق تسد" التي استمرت ثلاثين عاما.

واعتبر ماير فلنر في المؤتمر: "إن وحدة اليهود والعرب تثبت مرة أخرى، أن الانقسام في الشرق الأوسط وفي البلاد، هو ليس بين اليهود والعرب، بل بين القوى الرجعية الموالية للاستعمار والمعادية للشعب من جهة، وبين القوى الديمقراطية المعادية للاستعمار من جهة أخرى. إن الانقسام هو ليس عنصريا، بل سياسي وطبقي."

الانحراف اليميني وانقسام الحزب عام ١٩٦٥

سجّلت لحظات المنعطفات التاريخية الكبيرة في البلاد انعكاساتها على الحزب الشيوعي، إيجابا وسلبا. فإذا كانت حرب عام ١٩٤٨ بما حملته من نكبة الشعب الفلسطيني وقيام دولة اسرائيل، قد قادت إلى مؤتمر وحدة الشيوعيين العرب واليهود وإلى قيام الحزب الشيوعي الاسرائيلي، بعد انشقاق عميق وعلى أساس قومي منذ العام ١٩٤٣ ، وإذا كانت انشقاقات قد حدثت على خلفية ثورة القسام عام ١٩٣٦ ، وتعثرها في نهاية الثلاثينيات، وصولا إلى انقسام عام ١٩٤٣ ، فإن الأجواء التي نشأت في أواسط الستينيات من القرن الماضي، عشية الاعداد لعدوان حزيران ١٩٦٧ ، قادت إلى أحد أخطر الانقسامات في داخل الحزب الشيوعي الاسرائيلي، بقيادة ميكونيس (السكرتير العام للحزب في حينه) وسنيه، بهدف زعزعة الحزب من الأعماق، وسط انحراف قومي يميني انتهازي صارخ، حاول أن يقود الحزب غلى أحضان الإجماع القومي الصهيوني العدواني.

لقد تمحور الانقسام حول القضايا الأساسية وفي صميمها الوحدة الأممية اليهودية العربية للحزب، ومحاولة حرف الحزب عن الموقف المناهض للامبريالية، ومغازلة الإجماع القومي الصهيوني ومعاداة الاتحاد السوفييتي .

ويقول وولف إيرليخ في مقالة له لمناسبة مرور عشر سنوات على الانقسام، "إن سنيه ومؤيديه خاضوا معركة مريرة قبل الانقسام، ضد أية دعاية مناهضة للامبريالية، بادعاء أن مصطلح "الامبريالية " ليس مفهوما لدى الشعب في إسرائيل . وكنا أوضحنا في حينه، أن من وراء هذا الادعاء التكتيكي، تختبئ نوايا أكثر جوهرية. وعمليا فإن سنيه وجماعته يتنكرون لأحد أكثر التحليلات مركزية في فكر الحزب وسياسته، والقائل بأن التناقض الأساسي ليس بين الشعوب، وإنما بين القوى المعادية للامبريالية في الدول العربية وإسرائيل، وبين الامبريالية وخدامها . هذا التقييم وحده قادر على تجنيد الشعوب للنضال بلا هوادة ضد العدو الرئيسي، الامبريالية." (وولف إيرليخ – قوة الفكرة ص ٣٠٦). وبالمقابل، فقد حاول سنيه وجماعته أن يصوروا الصراع العربي الإسرائيلي، على أنه صراع بين قوميتين . والتأسيس بناء على هذا التصور، للادعاء بأن العدالة، وغياب العدالة في الصراع، هما من نصيب طرفي الصراع سواء بسواء.بمعنى أن السياسة الاسرائيلية الرسمية محقة جزئيا.

أخذ الانقساميون بقيادة سنيه يدافعون عن سياسة الحكومة، والتمويه والمراوغة بشأن تحضيراتها للحرب العدوانية التي

يعدون لها، وأخذوا يدافعون عن تنكرها للحقوق القومية للشعب الفلسطيني . وباتوا يؤسسون تقييماتهم وتحليلاتهم لظواهر عينية ملموسة، ليس بمقاييس الأممية البروليتارية، ولا بمقاييس الطبقة العاملة الاسرائيلية أو الطبقة العاملة العالمية، وإنما على مقاس قومي متعصب، وعلى مقاس المخططات العدوانية الاسرائيلية . لقد تبنوا فلسفة "كلنا في قارب واحد"، ويقصدون بكلمة "كلنا"، كلنا الاسرائيليين، من العمال، وأرباب رؤوس الأموال، من الشيوعيين وعملاء الامبريالية، دعاة السلام والصداقة بين الشعوب، والمتنكرين للشعب الجار.

ويقول إيرليخ: لقد ترافقت مواقفهم مع تحريضهم الأرعن ضد الحركة القومية العربية وضد الأحزاب الشقيقة في البلدان العربية . ويضيف: إن سنيه وجماعته يشوهون عن قصد، صورة التطور المعادي للامبريالية الجاري في البلدان العربية، والتي تشكل تطورا إيجابيا، على مستوى قضية التقدم العامة، وعلى مستوى المصلحة الوطنية الحقيقية الاسرائيلية، وإمكانات السلام العربي الاسرائيلي.(إيرليخ، المصدر السابق).

امتحان اليسار وأمميته في ظروف إسرائيل والمنطقة هو الموقف من الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية مجتمعة،وكل منها على حدة ..

إن مضمون النضال اليهودي العربي المشترك لا يقوم في فراغ، بل يحمل مفهوما متكاملا يكتسب أهميته على أساس السياق الفكري والسياسي الذي يتموضع فيه. ليس النضال اليهودي العربي مسألة تبشيرية تنطلق من منطلقات اخلاقية ومثالية، ولكنه مسألة مضامين فكرية وسياسية كفاحية نابعة عن تحليل موضوعي بأدوات ماركسية لينينية للواقع.، إنه الابن الشرعي للتحليل الطبقي.. ولذلك وفي ظروف الحركة الشيوعية في البلاد، تصبح مقاومة المشاريع الامبريالية والصهيونية وتواطؤ الرجعية العربية معها، هي الصخرة التي يمكن أن تبنى عليها وحدة النضال اليهودي العربي في ظروف فلسطين الانتدابية، وفي ظروف إسرائيل اليوم، وهي الشرط المسبق لأي نضال أممي جدير.

امتاز دور الشيوعيين العرب واليهود الأممي في تاريخ هذه البلاد، في فضح التآمر الثلاثي بين الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية، على حقوق الشعب الفلسطيني القومية، وعلى رأسها حقه في تقرير المصير. وتميز دورهم في فضح مسؤولية هذا الثلاثي عن نكبة الشعب الفلسطيني، جميعهم معا وكل واحد منهم على حدة . إن النضال الواضح ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية كان في الماضي ولا يزال اليوم أيضا، هو الامتحان الحقيقي أمام أية قوة يسارية، والمقياس الحقيقي لمدى يساريتها ومصداقية مواقفها الأممية. فأنت لا تستطيع أن تطرح نفسك يسارا أمميا صادقا في مكان معين، وأن تكون في الوقت نفسه ربيب النظام العربي الرجعي في مكان آخر. ولا أن تطرح نفسك يسارا أمميا حقا، من دون فك الارتباط بالفكر والممارسة الصهيونية، ومقاومة المشاريع الامبريالية في المنطقة وخارجها .

وفي حالة الحزب الشيوعي، على خلاف أية قوة أخرى ترفع راية اليسار الأممي وشعار أخوة الشعوب، فإن النضال ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية، شكل ولا زال يشكل حجر الزاوية الذي تميز به نضال الشيوعيين العرب واليهود، في فلسطين، وفي داخل دولة اسرائيل على مدار أكثر من تسعة عقود، وشكل واحدة من العلامات الفارقة التي انفرد بها نضالهم على الساحة الشرق أوسطية مهما تعددت الأشكال التي تنظموا من خلالها والظروف التي ناضلوا فيها. إن الشعار الأممي الذي رفعه الشيوعيون تاريخيا في شوارع تل أبيب وحيفا والناصرة : "مع الشعوب العربية ضد الامبريالية وعكاكيزها في المنطقة، وليس مع الامبريالية وعكاكيزها ضد الشعوب العربية . يشكل خلاصة الموقف الأممي المتميز الذي تفرد به الشيوعيون في قلب الصراع الدموي.

إن الدور الأممي للشيوعيين اليهود والعرب في اسرائيل، لا يقتصر على النضال من أجل تحرير الشعب الفلسطيني فقط من الهيمنة الصهيونية، وإنما يتجاوزه إلى النضال من أجل تحرير الشعب اليهودي من هيمنة الصهيونية أيضا .

لقد استولت الحركة الصهيونية تاريخيا، واستحوذت نهائيا على حق تقرير المصير للشعب اليهودي في فلسطين، وعملت

الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة: البحث عن يسار جديد.

إن الجماهير العربية في دولة اسرائيل، بتذويتها الاستراتيجية الأممية للحزب الشيوعي، لم تسلم بقبول موقعها على الهامش، بل قررت استعمال وزنها المتزايد ووزن مواطنتها من أجل أن تكون شريكا كاملا في إحداث التغيير الديمقراطي العميق داخل دولة إسرائيل، وفي النضال جنبا إلى جنب مع القوى الديمقراطية وقوى السلام في إسرائيل، من أجل السلام العادل الاسرائيلي الفلسطيني والإسرائيلي العربي ومن أجل تحرر الشعب الفلسطيني واستقلاله الوطني.

على فرض تماهٍ بين الصهيونية وبين هذا الحق. وهي في الوقت نفسه احتجزت حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني وتستميت في مصادرته نهائيا. وأصبح اليوم واضحا بما في ذلك لقطاعات لا يستهان بها من الاسرائيليين، أن تحرير حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني من القبضة الصهيونية يشكل الأساس، والمقدمة الأولى لتحرير مصير الشعب اليهودي في إسرائيل نفسه، من القبضة الايديولوجية والسياسية الصهيونية الخانقة.

إن الحزب الشيوعي، يقف بجدارة ضد الايديولوجية والممارسة الصهيونية، واستنادا على ذلك تحرض القيادة الصهيونية الجماهير اليهودية على الحزب، لأنهم يريدون أن يقولوا إن الصهيونية تعني الوطنية، وتعني الاهتمام بالشعب اليهودي، والاهتمام بالعاملين اليهود. بينما يقول الحزب الشيوعي العكس تماما: "فالسياسة الصهيونية الحاكمة تهدد بالخطر الشعب اليهودي هنا، وليس فقط الشعب العربي الفلسطيني . ومن شأنها أن تجلب الكارثة علينا جميعا، على اليهود وعلى العرب، لأنها تمنع السلام والأمن وتمس بالعاملين اليهود وليس فقط بالعاملين العرب". "في نهاية الأمر فإن الذي يقرر هو القاعدة الايديولوجية والنهج الطبقي، وهنا توجد أهمية كبرى لنقطة الانطلاق. فالشيوعيون هم أكثر المدافعين عن المصالح القومية للشعوب. لكن نقطة انطلاقنا هي أممية، طبقية. ولهذا فإننا نرى جميع أبناء الطبقة العاملة، وكل التقدميين أبناء كل الشعوب إخوة لنا، بينما نرى في المستغلين والمضطهدين (بكسر الغين والهاء) أعداءنا".(ماير فلنر– المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي الاسرائيلي).

الاستراتيجية الأممية تصبح استراتيجية الأقلية القومية العربية في إسرائيل

إن حقوق الجماهير العربية في إسرائيل لا يمكن إنجازها من دون إحداث اختراق تقدمي عميق، وتغيير ديمقراطي حقيقي في السياسة الإسرائيلية السائدة وثقافة الحكم النافذة فيها. ولكن القوى الإسرائيلية المعنية بإحداث تغيير ديمقراطي وتقدمي عميق، وتوسيع الحيز الديمقراطي التقدمي من الجهة الأخرى، تعي وعليها أن تعي، أن مثل هذا التغيير لا يمكن أن يتحقق من دون القضاء على سياسات الاضطهاد القومي العنصري، وسلب الأرض، والقمع وتضييق الخناق على الحريات الشخصية والسياسية، والتمييز في الحقوق المدنية والقومية في التعامل ضد الأقلية القومية العربية في إسرائيل.

إن النضال لإحداث التغيير التقدمي في إسرائيل، هو بالضرورة نضال أممي مشترك للجماهير العربية والقوى الديمقراطية اليهودية، لا بد أن تقوده قوة يسار ذات توجه أممي. إن الجماهير العربية وحدها، لا تكفي لإحداث التغيير، ولكن من دون وزنها فإن أية قوة أخرى لا تستطيع إحداثه.

ان الاستراتيجية الأممية للحزب الشيوعي، هي الاستراتيجية القادرة على تدعيم الأقلية القومية العربية، والقادرة على الدفاع عن مصالحها الوجودية، وعن حقها في المساهمة في إحداث التغيير الثوري والديمقراطي العميق، لأنها استراتيجية طبقية، لا ينحصر فيها فضاء الأقلية القومية العربية في سقفها القومي، بل تحتفظ لنفسها بالأفق المفتوح الممتد إلى فضاء الطبقة العاملة الإسرائيلية، وفضاء شعبها الفلسطيني، لتؤثر وتتأثر. هذا هو الفرق بين طروحاتنا ومنطلقاتنا الأممية، وبين كل الطروحات البديلة.

إن الجماهير العربية في دولة اسرائيل، بتذويتها الاستراتيجية الأممية للحزب الشيوعي، لم تسلم بقبول موقعها على الهامش، بل قررت استعمال وزنها المتزايد ووزن مواطنتها من أجل أن تكون شريكا كاملا في إحداث التغيير الديمقراطي العميق داخل دولة إسرائيل، وفي النضال جنبا إلى جنب مع القوى الديمقراطية وقوى السلام في إسرائيل، من أجل السلام العادل الاسرائيلي الفلسطيني والإسرائيلي العربي ومن أجل تحرر الشعب الفلسطيني واستقلاله الوطني وممارسة حقه في تقرير المصير على أساس القانون الدولي وقرارات الشرعية الدولية.

إن الجماهير العربية، ليس فقط أنها رفضت أن تجلس مكتوفة الأيدي في انتظار الخلاص والفرج من الخارج. وإنما اختارت أن تكون عاملا فاعلا ونشيطا في النضال من أجل الحل العادل لقضية شعبها الفلسطيني، من موقعها داخل إسرائيل. . إن المفهوم الاستراتيجي الأممي الذي يطرحه الحزب الشيوعي الإسرائيلي، هو ليس نقطة ضعف الحزب الشيوعي في المسألة القومية، بل العكس هو الصحيح . إن هذا المفهوم الأممي هو نقطة قوة الحزب، وقيمته المضافة.

جدلية الانتماء القومي الواضح وغير المتردد للشعب الفلسطيني، وفي الوقت ذاته، الانتماء الواضح وبلا تأتأة إلى معركة التغيير في المجتمع الإسرائيلي وإلى معارك الطبقة العاملة في إسرائيل . مع ما يعنيه ذلك من ممارسة دور فاعل ونشيط في المعركة لإحقاق الحقوق القومية المشروعة للشعب الفلسطيني، وعلى رأسها حقه في التحرر والاستقلال من جهة، وممارسة دور فاعل في إحداث التحويل الديمقراطي العميق للمجتمع الإسرائيلي من الجهة الأخرى .

لقد حصلت الإكثرية الساحقة من الجماهير العربية التي بقيت في وطنها والتي لم تطلها سياسة التهجير، على المواطنة الإسرائيلية، بفعل بقائها في وطنها . لكن جمهور المواطنين العرب، لم يكن قادرا على الاكتفاء بالمواطنة، بل كان عليه أن يخوض نضالا مريرا من أجل حقه في البقاء والتطور الكريم وانتزاع مستقبله فوق أرضه. إن النضال الذي تخوضه الأقلية القومية العربية في اسرائيل، يدمج بشكل عضوي، المعركة على الدفاع عن الأرض مع المعركة على الدفاع عن المواطنة وعن المساواة في الحقوق المدنية القومية. لقد دحض المواطنون العرب العقلية التي ترى ببقائهم في وطنهم وبمواطنتهم في دولة إسرائيل، تعبيرا عن ضعفهم وتعبيرا حتى عن "خيانة القضية القومية". لقد تبنت الجماهير العربية وجهة نظر الحزب الشيوعي، وتحليله الأممي، مؤكدة أن دور الأقلية القومية العربية، ونضالها من أجل حقوقها القومية والمدنية، يشكل جزءا لا يتجزأ من النضال دفاعا عن الحريات الديمقراطية وتحقيق السلام العادل والدائم سواء بسواء..

لقد أكد هذا التوجه، أن الجماهير العربية ليست عبئا على الديمقراطية الإسرائيلية، وإنما أحد الأعمدة الأساسية لأية ديمقراطية، وأن موقع الجماهير العربية المدني والسياسي، وحالتها الديمقراطية، هو المقياس الحقيقي الذي يجب أن تقاس به مصداقية هذه الديمقراطية. إن كل هجمة ضد حقوق الجماهير العربية، تشكل في نهاية المطاف، هجمة على الديمقراطية الاسرائيلية، وكل إنجاز تحققه الجماهير العربية بمشاركة القوى الديمقراطية الإسرائيلية، في معركة المساواة في الحقوق المدنية والقومية والعدالة الاجتماعية، يعزز من مكانة الديمقراطية ويشكل تدعيما لها، والعكس بالعكس. إن الاستنتاج الذي يمكن استخلاصه من هذه الرؤية المبدئية، يفترض أن القضايا الوجودية الأساس للجماهير العربية، يمكن أن تتقدم من خلال النجاح في المعركة على إحداث اختراق في الديمقراطية في اسرائيل وتعميقها، وتوسيع حقوق الانسان والمواطن، إلا أن اسرائيل لا تستطيع ان تصبح ديمقراطية حقيقية من دون التخلي عن سياسة التمييز والاضطهاد القومي، ومن دون حل هذه القضايا الأساس.

وعلى ذلك فان للجماهير العربية مصلحة بنيوية وعضوية عميقة في الدفاع عن الديمقراطية، وتساهم هذه الجماهير في الوصول إلى ذلك، من خلال النضال ضد التمييز تجاهها، وضد كل تمييز، وضد اضطهادها، وضد كل اضطهاد.

ان التغيير العميق القادر على تحقيق المساواة الكاملة في الحقوق القومية والمدنية لن يتم بدون الجماهير العربية أو في مواجهتها، ولكنه لن يتم أيضا عن طريق الجماهير العربية وحدها.

ومن هنا، فان النضال الديمقراطي اليهودي – العربي المشترك، وضع في الجانب الواحد من المتراس، كل أولئك الذين لهم مصلحة في تغيير النظام القائم نحو تحقيق العدالة الاجتماعية والقومية، يهودا وعربا، وفي الجانب الآخر منه، كل أولئك الذين لهم مصلحة في الاحتفاظ بالنظام الاجتماعي القائم، والذي يوفر الظروف لتعميق الاستغلال الطبقي والقومي .